في الأدب الفرنسي

زهرات من حديقة أبيقور

الحقيقة

هذه الحكمة اليونانية القائلة : « إعرف نفسك بنفسك » ، هي لعمري طيش شديد وجهالة كبرى ! ! فلن نستطيع أبدا أن نعرف نفوسنا ولا نفوس غيرنا من البشر . وانه ليغنى اليقين من ذلك والايمان به ، فان خلق العالم أدنى صحة وأقل استحالة وأكثر امكانا من فهمه وعرفانه . لقد شك بها « هجل » بعض الشك ، ومن القريب المحتمل أن يخدمنا العقل في يوم من الايام بابداع كون جديد ، فأما الكشف عن مفهوم هذا الكون وتبين كنهه فذلك ما لا سبيل اليه ، ولا قدرة لأحد عليه . والاولى بنا أن نسيء استعمال العقل ونمعن في الجور وسوء التصرف به ، بدلا من أن نتخذه آلة لتحري الصواب ومعرفة الحقيقة . وحتى استخدامه للحكم والقضاء كما يتطلب العدل ويرتضيه الناس فانه ضعيف ضئيل لا يجدى نفعا كبيرا ، وانما يصلح العقل للتسلى بذلك الملاهى ، وهى أكثر تعقيدا وغموضا من الشطرنج ، المسماة ميتافيزيك . . علم الاخلاق . . علم الجمال ، ولعله جدير بالرضى والاعجاب حين يقتطف من هنا وهناك قليلا من النتوء أو بعضا من الوضوح في الاشياء ، ثم يتمتع بألوانها وأصباغها من غير أن يفسد تلك اللذة البريئة الخالصة بالتفكير الكلى الشامل والاندفاع وراء الحكم والقضاء .

ادب الحياة

مادام معنى الجمال لا يدرك مستقلا عن حدود الزمان والمكان فانى لا أشرع في استساغة آثار الفكر والتلذذ بمنتوجات العقل الا حين أكشف عن وجه اتصالها بالحياة ولصوقها بها ، وهذه الصلة هى التى تجذبنى اليها وتأسرنى على قراءتها . فجرار هيارليك الضخمة حببت الى « الالياذة » كثيرا ، واذا كنت أتذوق « المهزلة الالهية » وأسيغ حلاوتها جيدا ، فلأنى أعرف حياة فلورنسا ، وأدرك الحال التى كانت عليها هذه المدينة في القرن الثالث عشر . أنا لست أقتش في الفنان الا عن صورة الانسان ! وما عسى أن تكون القصيدة الجميلة الرائعة غير البقية الباقية من جثمان الشاعر ؟ اليك هذا القول العميق يرسله جيته : « الآثار التى تخلد دون غيرها انما هى آثار الظروف والاحوال » ولكن الآثار الفنية لا يمكن أن تكون الا آثار الظروف والاحوال ، لانها انما ترتبط جميعها بالمكان والزمان اللذين أبدعاها وكونا عناصرها . ولسنا نستطيع تفهمها ولا محبتها اذا كنا نجهل الزمن الذى أنشئت فيه والمكان والشروط الاجتماعية التى أحاطت تكوينها .

الحق أن البلاهة المتعاظمة الصلفة انما تبرز في القول بالانتاج الفنى المستقل . فالثمن الذى يدفع غاليا للمؤلفات الرفيعة العالية انما هو ثمن العلاقات التى تربطها بالحياة . وانا كلما تبينت هذه العلاقات وكشفت عن قوتها اشتد هيامى بالاثر الفنى أستسيغه وأستمرئه

القمار

يلعب المقامرون كما يحب العشاق ويسكر الشراب مرغمين مجبرين . يلينون لقوة رائعة لا تقاوم ، ويستكينون للنوازع الجامحة العمياء ! وفى الناس من وقف نفسه على القمار ونذرها للعب ، على نحو من يقف نفسه على الهوى ويتذرها للتصابى والغرام . ولست أدرى الذى ابتدع قصة ذينك الملاحين المقامرين تذيبهما نيران اللهو ؛ كاد الملاحان يغرقان ثم طوحا بجسميهما وسط المغامرات الخطيرة ، ولم ينجهم من الموت المحتوم غير الطفرة الى ظهر حوت ، فما لبثا ان انتزعا من الجيوب الزهر والفنجان ، ثم راحا يلعبان !

هذه القصة أصح من الحقيقة وأشد منها ثبوتاً ، وكل مقامر مدنف انما هو ملاح على طراز من ذكرنا . والواقع ان فى القمار معنى من معانى الرهبة ، يهز أعصاب الشجاع ، ويثير فى نفسه الوان الاضطراب والقلق . فليس اختبار الحظ غبطة يسيرة معتدلة ، وليس ارتشاف حياة طويلة عريضة ذات أشهر وسنين مليئة بالخوف والرجاء ، بالألم والأمل — ليس ارتشافها فى هنيهة من الزمن لذة ضعيفة هامدة لا تثمل ! أذكر انى كنت دون العاشرة من عمرى حين قرأ علينا المسيو غريبنى ، استاذ الصف التاسع ، حديث الانسان والبيئة . وبالرغم من طول البعاد وتقادم العهد ، فانى ما زال أعيه وأتمثله كأنما هو حديث الأمس القريب : إن جنية ماكرة

دفعت الى طفل صغير خيطاً طويلا قدلف فى انتظام حول نفسه ثم قالت له « هذا خيط عمرك فالمسه ، وحين تريد ان يمضى الزمن لتستشرف له وتحيا فيه ، فاشدد الخيط فان الأيام والليالى سوف تمر أمام ناظريك وتكر متتابعة فى إسراع او بطء حسبما تشد الخيط فى قوة أو فتور . وما دامت لاتجذب هذا الخيط فانك تبقى من الوجود فى الساعة التى أنت فيها » فأخذ الطفل الخيط الملفوف فجره قبل كل شىء ليفلت من طور الطفولة ويغدو رجلا رشيداً ، ثم جره ليتزوج ممن أحب ، ومازال يجره حتى رأى أولاده تنمو ، ونفسه تبلغ أسنى المراتب ، وتنال المال الوفير والمجد الرفيع ؛ ثم جره ليجتاز آلام الشيخوخة ويجتنب ثقل وطأتها وامراضها . . واأسفاه على هذا العود الأملد النضير ! لقد عاش الطفل أربعة أشهر من بعدها ستة أيام على زيارة الجنية له :

لعمرك قل لى ماحد القمار اذا لم يكن الفن الذى يستبق أحداث الطبيعة العاقلة ، وبشد تقلبات الأقدار المتشددة التى لاتبرز الا فى سنين وسنين ! أليس القمار هذا الفن العجيب الذى يجمع فى لحظة من الزمن مختلف الاهواء والميول المنتشرة بين حياة الناس البطيئة الراكدة ؟ بلى ! إنه سر الوجود ومعنى الحياة نتذوقها فى مدى ضئيل من الثوانى القصار ، فهو يطاول القدر ويسايره جنباً لجنب ، ولعله يشبه صراع يعقوب مع الملك ، اوميثاق الدكتور « فوست » مع الشيطان .

المال مادة القمار ؛ ونقصد انه العلة الضرورية المباشرة ، ومن يدرى ! لعل الورقة التى تستبطن ، او الكرة التى تتدحرج ، تنفح المقامر اللاعب بالحدائق الجميلة ، والحقول المزروعة ، والاحراج الفخمة ، والقصور المشيدة تشق السماء ابراجها الدقيقة . هذه الكرة المتدحرجة انما تضم فى اطوائها الاراضى الخصبة الواسعة ، والدور العامرة تلمع مداخنها المنحوتة فى مياه اللوار ، إنما تضم كنوز الفن وعجائب الذوق ، وجواهر غالية طريفة ، ونفوسا كان يظن ان ليس الى يمها من سبيل . وعلى الجملة تضم مطارف الزينة والمجد ، وشديد القوى ونافذ الأسلحة ، ماذا أقول ؟ انها تضم شيئاً اثمن من هذا كله بكثير : تضم الأمانى والأحلام ، أفتريد بعد هذا الا يلعب المقامرون وألا يلهو الهازلون .. ؟؟ ولو أن القمار لا يبعث غير الآمال الكبار ولا يبدى الا بسمة عينيه الخضراوين ، لكان الميل اليه خفيفا نحيلا ، ولكنها اظافره مصنوعة من ماس ، يروع ، ويخلع البؤس ان شاء ، والحياء حين يريد .. ومن هنا كان القمار إلهاً تقدم له فروض الطاعة ومراسيم العبادة .

يكمن الخطر فى الأهواء الملحة العنيفة ، أرأيت غبطة شديدة ليس يصحبها خمار أو يعقبها دوار . وانما تكدر اللذة قد خالطها الفزع ، وهل يخيف شىء فى الوجود أكثر مما يخيف القمار ؟ اذا أعطى أدهش ، واذا أخذ فتش . منطقه بيان منطقنا ، فهو اصم وأبكم وأعمى ! قاد على كل شىء كالآله ، له عباده وقد يسوء الذين يحبونه لذاته لا لثوابه ؛ وأكثر مايعبدونه حين ينزل بهم عذابا اليما . وقد يعريهم مما يلبسون ، فيعزون النقص اليهم دونه ، ثم يقولون (لقد اخطأت كثيراً فى لعبى)

وارحمتاه لهم ! يتهمون أنفسهم ثم لايكفرون .

حمص — محمد روحى فيصل

عدد ممتاز

من الرسالة

فى ثمانين صفحة

تصدر الرسالة لمناسبة حلول السنة الهجرية الجديدة عددا ممتازا فى ثمانين صفحة من حجمها المعتاد ، مشتملا على عدة مباحث فى التاريخ الاسلامى والأدب العربى باقلام أكابر الكتاب المحققين ، والادباء فى مصر والشرق العربى